الفصل الاول

« الاسطورة التكوينية »

« وجبل الرب الإله آدم تراباً من الارض ونفخ في انفه نسمة حيـــاة فصار آدم نفساً حيّة » (تكوين ص ٢ . عدد ٧).

« فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم ، فنام ، فأخذ واحدة من اضلاعه ومـــلأ مكانها لحماً . وبنى الرب الإله الضلع التي اخذها من آدم امرأة واحضرها الى آدم . فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي . هذه تدعى امرأة لانها من امرىء أُخـذت » (تكوين ص ٢ ع ٢١ و٢٢ و٢٣) .

ثم تكملة القصّة ، إذ ذاقت المرأة من ثمرة الشجرة المحرّمة ، فاستطابتها واعطت رجلها ، مما سبب غضب الرب ، وانزل بهما القصاص . فقال للمرأة : « تكثيراً أُكثر اتعاب

حبلك ، بالوجع تلدين اولاداً والى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك . »

لا اعلم كم من الناس في هذا العصر لا يزالون يعتقدون بصحة هذه الاسطورة المنمّقة التي جعلت من الرجل نفخة في رماد ومن المرأة ضلعاً من اضلاع الرجل . ثم شاء واضعها ، فألّف حكاية الشجرة والثمرة وخداع المرأة لرجلها ممّا جعل منه سيداً عليها . وقد غاب عن مؤلف هذه الأسطورة ان الخداع يستلزم المكر والدهاء وقوة المنطق في الخادع ، والبساطة وضعف القوة الادراكية في المخدوع . فكيف يجوز لضعيف الادراك ان يسود من يفوقه دهاءً وادراكاً ؟

لقد غرست هذه الاسطورة — وهي هندية الاصل — اعتقاداً ان المرأة قطعة صغيرة من جسم الرجل . وانها كمية مهملة . والضلع ، كما يعلم الأطباء ، ليست من الاعضاء الحيوية في جسم الانسان . الضلع تكسر ، وتقطع ، وتسلخ من الجسم دون ان تنزل به ضرراً ملموساً . هذا هو شأن المرأة من الرجل ، وهكذا اراد واضعو الاسطورة — ولا شك انهم من الرجال — ان تكون . وقد وضعوها في صلب الاديان وجعلوا منها اساساً تبدأ به المعتقدات . ولا ادري كيف ولماذا اقتبستها وتبنتها جميع الديانات الالهية ،

بدون تمحيص على كثرة ما بين هذه من اختلافات .

وها نحن اليوم في عصر العلم والبحث والمعرفة نعلم ان التكوين على الصورة التي شرحها سفر التكوين ، اسطورة وخرافة . ولما يزل ، بالرغم من ذلك ، من يريد ان يتخذها اساساً للاديان والألف في ابجدية العلوم اللاهوتية .

لا يا سيدتي ، انت لست ضلعاً من اضلاع الرجل . فلماذا يريدون ان يحكموا عليك بالاساطير والخرافات ؟

لن ابحث موضوع النشوء والارتقاء ، ولن احلل النظريات العلمية في اصل الحياة . فهذا الكتاب لم يوضع لهذا الغرض . ونظرية النشوء والتحوّل لا تحتاج الى من يدافع عنها . غير اني اريد ان تفهم المرأة انها وجدت بالطريقة نفسها التي وجد بها الرجل . نشأت مثله ، وارتقت مثله . يجب ان تعلم انها والرجل صنوان طبيعياً . ومتى وثقت هي من هذه الحقيقة العلمية ادركت عندئذ اي ضرر نزل بها من اسطورة آدم وحواء التكوينية .

لولا الرجل لما كانت المرأة . أليست هي جزءاً منه ؟ اذاً هي له ، ملكه . هكذا يستنتج من الاسطورة الخالدة . ولو كنت امرأة لاسميتها الاسطورة الجانية .

وهل تكون هـذه الاسطورة سبباً من اسباب وضع المرأة في مرتبة ادنى من مرتبة الرجـل ؟ اذا لم تكن هي كل السبب فهي معظمه . فالديانات التي اعتنقتهـا استوحت شرائعها منها . والكتب المقدسة ملأى بالشواهد المثبتة .

في اول سفر من التوراة يحكم عليها الله – بزعم مؤلف التوراة – بالعبودية للرجل . ويشرع موسى برجسها من يوم تولد : « اذا حبلت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة ايام . وان ولدت انثى تكون نجسة اسبوعـين » (لاويين ص ١٢) .

وهذا بولس الرسول فيلسوف الكنيسة المسيحية يقول : « ايها النساء اخضعن لرجالكن كما للرب لان الرجل هو رأس المرأة كما ان المسيح هو رأس الكنيسة . واما الرجال فيجب ان يحبوا نساءهم » (افسس ص ٥) ثم يقول في رسالته الى كورنثيوس : « رأس المرأة هو الرجل . ورأس الرجل هو المسيح . ورأس المسيح هو الله . الرجل هو صورة المسيح ومجده ، واما المرأة فهي مجد الرجل ، لان الرجل ليس من المرأة بل المرأة من الرجل ، ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة ، بل المرأة من اجل الرجل . »

ولا يشذ نبي الاسلام عن هذه التوصية الدينية عندمـا

يشرع للذكر مثل حظ الانثيين وعندما يقول : « الرجال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم . فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، ان الله كان عليّاً كبيراً » الآية .

لنرجع الى علم التشريح ، فهل نجد فيه نقصاً عضوياً او خلقياً في المرأة يبرر استعباد الرجل لها ؟

يقول علماء التشريح ان دماغ الرجل اثقل من دماغ المرأة ببضعة غرامات . وكذلك يقولون ان وزن الدماغ ليس مقياساً لدرجة الفهم والادراك . فدماغ زيد اذا زاد وزنه عن دماغ عمرو لا يعني ان زيداً يفوق عمراً ذكاءً . ان وزن الدماغ يتبع وزن الجسم بكليته . وبما ان الرجل على العموم اثقل وزناً من المرأة فدماغه اكبر من دماغها حجماً . اما القوة الادراكية فالدليل عليها كمية المادة السنجابية في الدماغ وعمق الشقوق والأخاديد . وهذه لا يقول علماء التشريح انها تختلف عما هي في الرجل .

ثم يجب ان لا يغرب عن بال القارىء انه اذا وجد تفوّق في ادمغة بعض الرجال على النساء ، فان هناك

شواهد اثباتية على تفوّقٍ في ادمغة بعض النساء على الرجال . وذلك يرجع لتأثير العوامل العلمية والثقافية والتربوية التي يجيزونها للرجل ويحرمون منها المرأة . فالخمول ، والاهمال ، وعدم الاهتمام بتعليم الفتاة امورٌ تعمل على توقف نمو القوى الادراكية فيها .

ان المرأة التي تُركت اجيالاً عديدة مهملة ليس من الغريب ان تراها مقصرة عن الرجل . غير ان تقصيرها وتفوّقه ليس من اعمال الطبيعة المبدعة ، انما هو نتيجة الاهمال والحرمان الذي جناه الانسان وشرائعه وانظمته التي وضعها قوم في ساعات شرهم ، فالّفوا هذه الاسطورة الخالدة ، اسطورة آدم وحواء .

وهاك حقيقة واقعة لا ينكرها المكابرون : ان المستوى العقلي في معدل الفتيات قبل العاشرة من سنيهن هو اعلى منه في معدل الفتيان في هذه السنّ . فالذي تدركه هذه الفتاة لا يدركه الفتى . ولنمشِ مع المكابرين لنقول انهما متساويان . غير اننا لا نلبث بعدئذٍ ان نرى تفوّقاً في الفتى . وما ذلك إلا لان الطبيعة لم تعد وحدها القيّم على الاثنين ، اذ ان الانسان يدخل متحيزاً للذكر دون الانثى ، يلقي بين يدي الاول جميع الوسائل التثقيفية بينما يحرم الثانية الا من

جزء ضئيل منها ، فيسير الفتى متقدماً وتتعثر الفتاة باذيال الاهمال والظلم الانساني . فكثرة الاعمال العقلية التي يتولاها الرجل تزيد في نضوج عقله بينما حرمان المرأة منها يضعف قواها الفكرية . الاول يربو ويزيد ، والثانية تخمل وتضعف .

ولقد تنبهت الاوساط الراقية الغربية الى هذا النقص في التعليم ، ففتحت للمرأة مجال العمل في الحقل الادبي والفكري والعملي ، وتبين لها ان المرأة اذا اعطيت الفرص والامتيازات نفسها التي تعطى للرجل اتت باعمال تساوي ، وفي بعض الاحيان تفوق اعمال الرجل . ففي البلدان الراقية الاوروبية والاميركية كثيرات هن النساء اللواتي يدخلن المجتمع الادبي والسياسي . والنساء اللواتي يفشلن في اعمالهنّ اقل من الرجال الفاشلين . فالمرأة اصفى ذهناً ، واقوى ذاكرة ، واكثر صبراً وتجلداً على العمل والتعب من الرجل . واذا راجعنا سجلات المدارس رأينا الفائزات اكثر عدداً من الفائزين .

لتعطَ المرأة الفرصة الموآتية عندئذ تراها مساوية للرجل ان لم تكن اسبق منه في المؤهلات اللازمة في اكثر نواحي الحياة .

اما في الشرق فقد سجنوها ، وقيدوها ، وضيقوا عليها ،

وحرموها وسائل التقدم ، فنشأت ضعيفة ذليلة ، وكان ذلك العامل الاكبر في تأخر التمدن الشرقي ومجتمعه . فهل يدرك الشرق ان طموحه لن يثمر اذا لم تتحرر المرأة من هذه القيود فيفتح لها باب العلم والعمل والانطلاق ؟

obeikandl.com